﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [إبراهيم: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُتّكأ الكافرين في إنكار الرّسالات السّماويّة اجتماع الرّسالة مع وصف البشريّة

بعدما رصد القرآن الكريم ذلك التّكذيب الجماعيّ لإنكار اجتماع البشريّة مع الرّسالة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]، فجاءت الآية الكريمة هنا ردًّا على هذا الاستغراب، كأنّها جواب عن سؤال: فما كان جواب الرُّسل؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمُنُّ﴾: جذر الكلمة هو (منّ)؛ والمِنّة النّعمة الثّقيلة، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، والمِنّة في هذه الآية هي ما يَمُنّ الله به على أنبيائه ورُسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤﴾ [الصّافات: 114]، أو ما يمُنّ الله به على المؤمنين من نعمة الإيمان، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164]، و﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النِّساء: 94]، و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [القَصَص: 5]، وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى. فالمَنّ إشارة إلى الإطلاق بلا عِوَض. وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39]؛ أيْ: أنفقه[1].

2) ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾: جذر الكلمة هو (سلط)؛ السُّلْطانُ: الحُجّة[2]، قال

(1) الرّاغب، المفردات: (منن).
(2) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم: (سلط).

تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: 29]؛ أيْ: حُجّتِيَه. والسُّلْطان: قُدرةُ الملكِ، وقُدرة مَن جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكًا، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلان[1]. والمعنى في الآية: وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطان إلّا بإذن الله؛ أيْ: ولسنا مالكين لسلطان الله؛ فهو وحده سبحانه مالك سلطان هذا الكون.

3) ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: جذر الكلمة هو: (وكل)؛ والتَّوَكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، واتَّكَلَ على فلان في أمره إذا اعتمده[2]. وهو الاعتماد، وتفويض التَّدبير إلى الغير، ثقة بأنَّه أعلم بما يصلح، فالتَّوكّل على الله تحقُّق أنَّه أعلم بما ينفع أولياءَه من خير الدُّنيا والآخرة[3]. والتّوكّل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك، والوَكِيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول. قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النِّساء: 81]؛ أيْ: اكتف به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، وعلى هذا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: 173][4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآية الكريمة تُبيّن ردّ الرُّسل مقالة الكافرين الّتي أجملتها الآية السّابقة ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، والمعنى: أنّ الله فضّلنا على سائر البشر بالرّسالة، وهذه مِنّة من الله على مَن يشاء من عباده، أن جعلنا أنبياء وكلّفنا بالرّسالة. ولا سبيل لنا أن نأتيَكم بِسُلْطانٍ إلّا بِإذْنِ الله؛ لأنَّ الأمر بيد الله تعالى وحده، وعلى المؤمنين أن يتوكّلوا على الله في جميع أمورهم وأحوالهم، ونحن أحوج إلى التّوكّل على الله في نُصرة دعوتنا طلبًا لهداية النّاس.

تفضيل الرُّسل على جنسهم من البشر مِنّة كبرى من الله، والإيـثـار بالمِنن شـأن الـلـه في خَلقه

(1) الخليل، العين: (سلط).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وكل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(4) الرّاغب، المفردات: (وكل).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرض التّعبير بأسلوب شبه كمال الاتّصال:

فُصِلَت الآية ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عن سابقتها لأنّ بينهما شبه كمال اتّصال؛ فهذه الآية جاءت ردًّا على اتّهام أقوامهم لهم بأنّهم بشر، فهي جواب عن سؤال مُقدّر: بماذا ردّ الرّسل عليهم؟ فبيّنت أنّ الرّسل بشرٌ مثل أقوامهم؛ بل هم مبعوثون من أقوامهم طلبًا لهدايتهم، واللّه يمنّ بالرّسالة على مَن يشاء من عباده، ليكونوا رُسلًا من عنده سبحانه إلى أقوامهم وأُممهم.

في الجواب عن التّساؤلات إزالة للوهم الحاصل

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ حرف جرٍّ للتّعليل، وتُفيد معنى الاختصاص؛ أيْ: إنّ الاسم الّذي يأتي بعد حرف الجرّ (اللّام) يكونُ مُختصًّا بالحَدَث، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق: 31]. وذكر ابن عاشور: (اللّامُ) الدّاخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل؛ أيْ: أقول قولي لأجلك[1]. فاختصَّت تلك الأقوام بأقوال رسلهم طلبًا لهدايتهم، كي لا يكون للنّاس على اللّه حُجّة بعد الرّسل.

الرّسالات السّماويّة خطابٌ لأصحاب العُقول

نكتة تقديم شِبه الجملة: ﴿لَهُمْ﴾:

وتقديم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾ للاختصاص؛ وفائدته قصر الفعل على المُتقدّم ﴿لَهُمْ﴾، فبيّن هنا اختصاص الأقوام بما قالته الرّسل ردًّا على تعلّاتهم، وإنكارهم على الرّسل بشريّتهم، وتركوا الرّسالة الّتي هي محور المُحاججة والخطاب، فقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة معهم في أوّل مقالتِهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص الكلام بهم؛ إذْ أُريد إلزامُهم، بخلاف ما سلف من إنكار وقوعِ الشّكِّ في اللّه سبحانه؛ فإنّ ذلك عامٌّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه[2].

كلّ رسول يكون نذيرًا لقومه خاصّةً؛ فهو أعرف النّاس بهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

غرض عود الضّمير في: ﴿لَهُمْ﴾:

المُخاطَب الأوّل بالرّسالة هم الّذين عاصروا الرّسول

الضَّمير في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على أهل القُرى الّتي كذّبت الرّسل وهم: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: 9]، فقد جمعتهم قضيّة واحدة هي أساليب تكذيبهم، وطريقة الإنكار على الرّسل، فهم لم يُنكروا عليهم الرّسالة، وإنّما أنكروا أحقيّة الرّسول بالرّسالة، فقد أنكروا عليهم بشريّتهم.

الفرق بين نظم آية ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ وسابقتها:

الخطاب للمُكذّبين من النّاس والخطاب لعمومهم

وقف ابن عرفة على الفرق بين نظم الآيتَيْن: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، والّتي سبقتها: ﴿*قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ [إبراهيم: 10]؛ إذ ذَكَرَ وجهًا للتَّفرقة بينهما: هو زيادة ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، فهذه قيلت خاصّةً بالمُكذّبين من أقوامهم؛ فهي جواب عن كلام صدر منهم، والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم؛ أيْ: للمُصدِّقين والمكذِّبين. فهو خطاب لعموم الأقوام، كما أنّ وجود اللّه أمر نظريٌّ لِمَن خوطب أوّل مرّةٍ بالرّسالة والإيمان، فكان كلام الرُّسل في شأنه خطابًا لعموم أقوامهم، وأمّا بعْثة الرّسل فهي أمرٌ ضروريّ ظاهرٌ بيّنٌ أمامهم، لا يحتاج إلى نظرٍ وتفكّر، فكأنّه قال: ما قالوا هذا إلّا للمكذِّبين لغباوتهم، وجهلهم لا لغيرهم[1].

سرّ إضافة الرّسل إلى ضمير أقوام:

الرّسل من جنس أقوامهم فذلك أدعى لتصديقهم

في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أضاف (الرسل) إلى ضمير أقوامهم لبيان قُربهم إليهم، وأنّ أولئك الرّسل قد نشأوا مع أقوامهم، ويعرفونهم ويعلمون صدقهم ويعلمون صلاحهم، فيكون ذلك حجّة دامغة على الأقوام، وهذا من مقاصد القرآن في بيان أنّ اللّه يرسل الرّسل من الأقوام نفسها؛ ليكون الرّسول عالِمًا بلسان قومه، فيكون ذلك أنسب للبلاغ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/444، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/201 - 202.

نكتة التّعبير بالقصر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

جاء القصر بطريق النّفي والاستثناء تناسبًا مع ما جاء في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10] في الآية السّابقة، والقصر بطريق النّفي والاستثناء يكون فيما يُنكره المخاطَب، أو ما يُنزّل منزلته، والّذين كفروا نزّلوا المرسلين منزلةَ المُنكِرين؛ لاستعظام أن يأتي بشرٌ مثلهم برسالة من عند الله. فجاء ردّ الرّسل مقالتهم بالأسلوب نفسه، فالأنبياء بيّنوا أنّ التّماثل في البشريّة والإنسانيّة لا يمنع من اختصاص بعض البشر بالنّبوة؛ لأنّ النّبوّة من أعظم ما يَمُنُّ الله به على مَن يشاء من عباده[1].

المُنكِرون يخاطَبون بأقوى الأساليب في حمل المعاني للمُخاطب

نكتة الاقتصار في الخبر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾:

قوله: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تسليم لقولهم ومسايرة لهم، وأنّهم بشر مثلهم، يعنون أنّهم مثلهم في البشريّة وحدها، فأمّا ما وراء ذلك فليس كذلك، فهم أنبياء مصطَفَون، ولكنّهم لم يذكروا فضلهم تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ بالنّبوّة؛ لأنّه قد علم أنّه لا يختصّهم بتلك الكرامة إلّا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد أوثروا بها على أبناء جنسهم[2].

البشريّة هي المشترك بين الرّسل وأقوامهم

غرض تنكير الخبر ﴿بَشَرٞ﴾:

وردت ﴿بَشَرٞ﴾ هنا مُنكّرةً، وقد خرج التّنكير إلى معنى التّهوين والتّحقير؛ إذ ليس من شأن البشر أن يدّعوا خبر السّماء، فردّ عليهم أنبياؤهم بأنّهم بشرٌ من باب المُجاراة، ولكنّهم اختُصّوا بالوحي.

العبرة تكون بالرّسالة لا بأشكال الرّسل وبَشريّتهم

سرُّ تقييد الخبر ﴿بَشَرٞ﴾ بوصف ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

جاء القيد في الآية ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُطابقًا للقيد في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/74.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/511.

مطابقة الـرّدّ لـلاعـتراض من أبلغ المناسبة

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، لتمام الجواب والإحاطة بما جاء في الاعتراض والتّكذيب استيفاءً للحُجّة، وإفحامًا للخَصْم، ببيان أنّ ما يرونه علّةً مانعةً هو وصف محقّق للبلاغ، وفي ذلك تأكيدٌ لنفي كون البشريّة مانعًا من الرّسالة، بل التّماثل أَوْلى بالبلاغ وأنفى للالتباس، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

النّعمة كلّها في اصطفاء الرّسل من البشر للبشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ نجد أنّ الواو عاطفة، للجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في حُكمٍ واحدٍ، فلمّا ذكر المماثلة في البشريّة جمع معها المِنّة من الله، وهي مخالفة الآخرين بمزايا كثيرة، فمنهم مَنْ مَنَّ الله عليهم بالرّسالة والنّبوّة، ومنهم مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بصُحبة الرُّسل والإيمان بهم، ومنهم مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان الصّادق واليقين دون الصّحبة، والمِنّةُ المخصوصة في الآية هي منّة الرّسالة والنّبوّة، وهي أعظم مِنن الله على عباده، فجَعَلت منهم أنبياء ورُسلًا.

غرض الاستدراك بالجملة الاسميّة ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾:

المِنّة بالرّسالة من الله وحده لأمـورٍ هـو بها عليم

في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ جاءت أداة الاستدراك من بعدها جملةً اسميّةً، قدّم المُسند إليه على خبره الفعليّ، والمُسند إليه هو الاسم الجليل لتربية المهابة، وإشعارًا بعِظَم المِنّة، وجاء الخبر بالجملة الفعليّة لإفادة الاختصاص وتأكيده، وتقويةً للمعنى، وذلك يأتي من تكرار الإسناد؛ فالجملة الفعليّة أُسندت للمُسنَد إليه، والفعل فاعله ضمير مستتر يعود على الاسم الجليل، فكأنّه قيل: اللهُ يمُنّ اللهُ يمُنّ، وفي كلّ ذلك تعظيم لقدر هذه المِنّة.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَمُنُّ﴾:

من شُكر المِنّة استحضارُها دائمًا وتجدُّد ذِكرها حالًا ومقالًا

التّعبير بالمضارع في موضع الماضي دلالة على تجدُّد النّعمة، وإيماء إلى امتداد آثارها، ومعاملة الآثار معاملة المؤثّر في الحضور الدّائم والتّأثير البالغ الّذي يظهر في الأجيال المتتابعة، فليست المنّة بالنّبوّة، والرّسالة مقتصرة على أزمنة الرُّسل لكنّها سارية ممتدة، وهذا ما يهدي إليه استخدام المضارع عكس الماضي الّذي يدلّ على مُضيّ الوقت وانتهاء الحدَث، وهو ممّا لا يليق بسياق السّباق ولا اللّحاق، فالفعل المضارع يفيد الاستمرار والتّجدّد، فمِنَّة الله تعالى على عباده مُستمرّة إلى يوم القيامة، فالمضارع يدلُّ على الحال والاستقبال[1]، إذ يشترك فيه الحاضر والمستقبل[2].

سرُّ التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ﴾:

المِنّة مظلّة رحمةٍ عالية من الله لعباده المؤمنين

يدلّ الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ على الاستعلاء حقيقة كان أم مجازًا، وهو هنا في قوله: ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كاشف لفضل الله ومُفسّرٌ لمنّته التّامّة على عباده؛ إذ هو فضل الله في ذلك كلّه، ولا فضل لأحدٍ في ذلك غير فضل الله ومنّته على خلقه. والآية من قبيل الاستعلاء المجازيّ، فكأنّ المنّة عَلَت على مَن يشاء الله من عباده، فهي كالظُّلّة لهم، تصاحبهم بفضل الله ومِنّته.

نكتة التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَن﴾:

المِنَنُ الإلهيّة شاملةٌ لعموم أهل الإيمان

أفاد الموصول في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ التّعميمَ؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلت: 30]، و﴿مَن﴾ اسم موصول يختصّ بأولي العلم، وهو للمُفرد والمُثّنى والجمع والمُذكّر والمُؤنّث، فيكون في إيراده في هذا المقام دلالة شمول مِنّة الله على جميع عباده المؤمنين.

(1) المُبرّد، المُقتضب: 2/2.
(2) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/137.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَشَآءُ﴾:

منّة الله على عباده المؤمنين لا تنقطع إلى قيام السّاعة

فائدة الفعل المضارع التّجدُّد والاستمرار، وفائدة الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ بيان شمول المشيئة الإلهيّة لجميع الأزمنة في المِنّة والاختيار، والتّقدير: فلا يكون شيء إلّا بمشيئته واختياره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، وفائدة الفعل المضارع ﴿يَشَآءُ﴾ في هذا الخطاب إطماعُ المُخاطَبين بفضل الله تعالى ومِنّته؛ وفيه ردّ الأسباب إلى الله، وليس كلّ أمر تتبيّن أسبابه.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾:

اصطفاء الرُّسل خاضع لمشيئة الله لبعض عباده

الرّاجح أنّ ﴿مِنۡ﴾ هنا للتّبعيض، فالله تعالى يختصّ بعضًا من عباده ليمُنّ عليهم بالهداية والعلم والرّسالة والنّبوّة، وذُكر في (المُقتَضَب) أنّ كونها للتّبعيض راجع إلى ابتداء الغاية[1].

سرُّ إضافة (عباد) إلى ضمير العظمة: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

إضافة العبوديّة للضّمير العائد على الاسم الجليل تشريف

أضاف لفظ (عباد) إلى ضمير العظمة لفائدة قرب النّاس من الله سبحانه فهو خالقهم وهم عباده؛ فإمّا أن يكونوا عبادًا طائعين، وإمّا أن يكونوا عبادًا عاصين. و(عباده) هنا بمعنى خلْقه الّذين خَلَق؛ فيُنعم على مَن يَشاء من عباده بالنُّبوَّة، وَقيل: بالتّوفيق والهدايَة[2]، وفي الإضافة تشريف وتعظيم لشأن العبوديّة لله.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الحُجج وحيٌ من الله وليست اجتهادًا فرديًّا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ عاطفة للجمع؛ إذْ جمعت بين منّة الله تعالى على عباده من الأنبياء بإرسال الرّسالات وفضله عليهم، فعطف عليها ما يؤكّد هذه المنّة من كون حُجج الرّسالات وحيًا من الله لا اجتهادًا فرديًّا منهم، فهم مُبلِّغون.

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 1/44.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/107.

سرُّ التّعبير بالكون المنفيّ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

التّركيب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أفاد نفي الماضي والحال والاستقبال، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان عن نفسه، أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره؛ فمعناها: النّهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه، فمعناها نفي ذلك الأمر جملةً، وكذا هي في الآية، قال المهدويّ: "لفظها لفظ الحظر، ومعناها النّفي"[1]؛ والمعنى: لم يكن في أصل خلقتنا أن تكون لنا قدرة على أن نأتيَكم بمعجزات تقترحونها، فما نحن إلّا بشرٌ مثلكم، فاللّه تعالى خلقنا بشرًا كما خلقكم بشرًا، وإنّما المعجزات هي أفعال للّه تعالى، فلن تجدوا منّا من خوارق الأمور إلّا بإذنه سبحانه.

خلق الله الرّسل بشرًا كما خلق أقوامهم، والمعجزات هي أفعال لله وحده

معنى اللّام في قوله: ﴿لَنَآ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ (اللّام) لام الملك، وفائدتها التّأكيد على عدم امتلاك القدرة على الإتيان بالحُجج والمعجزات من غير إذن، وليس بمقدور المُرسَلين أن يأتوا بالمعجزات من تلقاء أنفسهم.

المعجزات أفعال لله يختصُّ بها وحده دون غيره

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾:

وتقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾ للاختصاص؛ أيّ إنّه قصر المُسنَد إليه على المُسنَد المُتقدّم، ونفيُ العبارة أفاد أنّهم اختصّوا أنفسهم بالعجز عن الإتيان بالمُعجزات، فجعلوا من أنفسهم أنموذجًا وقدوة لعجز البشر؛ وهم رسُلٌ من عند اللّه فكيف بغيرهم؟

نَفيُ الرّسل عن أنفسهم أفعال الله فهو وحده القادر

دلالة (أنْ) في قوله: ﴿أَن نَّأۡتِيَكُم﴾:

تدخل (أنْ) على الفعل المضارع فتصرفه إلى الاستقبال؛ والمعنى هنا: وما كان لنا لنأتيكم؛ فـ ﴿أَن﴾ هُنا أفادت التّعليل، وتُعرَب مع ما بعدها على أنّها مصدر مؤوّل اسم كان، وهي كثيرة في القرآن الكريم،

لم يودِع اللهُ في البشر قدرة الإتيان بالمعجزات؛ بل اختصّ نفسه بها

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/329.

وجاء في (المُقتَضَب) أنّها تكون علّة لوقوع الشَّيء[1]؛ أي إنّ علّة عدم إتياننا بما اقترحتموه من المعجزات أنّ الله لم يودِع فينا تلك القدرة، فما نحن إلّا بشر مثلكم، قد مَنّ الله علينا بالرّسالة والهداية.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾:

نفي الرّسل قدرتهم على الإتيان بالمقترحات المُعجزة حاضرًا ومستقبلًا

التّعبير بصيغة المضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾ لإفادةِ التّجدّد في إمكان حدوث الحدَث، فلمّا سُبق بالتّركيب: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ دلّ على نفي تجدّد واحتمال أن نأتيَكم مستقبلًا؛ فلن يكون منّا، ولا من رسول بعدنا أن يأتيَ قومه بآية من عند نفسه؛ إنّما هي أفعال الله تعالى يقدّرها متى شاء وأين شاء.

معنى الباء في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

معجزةُ الله جاريةٌ على يد مَن يُكلّفه بتبليغ الرّسالة

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، قال سيبويْه: "وباء الجرِّ إنّما هي للإلزاق والاختلاط"[2]، وجاء في المُقتَضَب: "وأمّا الباء فمعناه: الإلصاق بالشَّيء"[3]، فقوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ من الإلصاق المجازيّ؛ إذِ المعنى التصاق السُّلطان أوِ المعجزة بالقائلين، وفائدة ذلك، أنّ المعجزات إنْ أذن بها الله فهي قريبة جدًّا منهم ملتصقة بهم، وسائرة على أيديهم، وأمّا إن لم يأذن بها الله فلا يكون شيء من ذلك قطعًا.

غرض تنكير ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

السُّلطان الهيمنة والقدرة على تغيير نواميس الكون

فائدة التّنكير لكلمة (سلطان) في قوله ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ هو التّعظيم لشأن المعجزة وما طلبوه واقترحوه منها؛ إذ لا يكون ذلك إلّا بإذنه سبحانه، والسّلطان يقتضي الهيمنة والقُدرة على تغيير نواميس الكون بحسب مشيئة الخالق لها؛ ولا أحد يملك مفاتيح

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 3/214.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(3) المبرِّد، المُقتضب: 4/142.

الخَلْق ولا مقاليد السّموات والأرض إلّا الله ﷻ، وهذا هو السّلطان الّذي معناه تغييرٌ لبعض نواميس الكون، فيظهر شيئًا خارقًا للعادة وللسُّنن الكونيّة.

معنى الباء في قوله: ﴿بِإِذۡنِ﴾:

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ من الإلصاق المجازيّ، والمعنى بأمر الله؛ فلا يكون شيءٌ ممّا اقترحتموه إلّا بأمر الله، فحدوث ذلك ملتصق بإذن الله تعالى في ذلك؛ و﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ تعني: بإرادته سبحانه في تغيير بعض نواميس الكون، يراه بعض النّاس في آية ماديّة، ثمّ تتناقلها الأخبار، وتحتفظ بذِكْرها الكتب السّماويّة؛ كدلالة على صدق الرّسل في رسالاتهم، وتأييد الله لهم.

الإتيان بالمعجزات ملتصق بإرادة الله سبحانه

سرُّ الإضافة إلى لفظ الجلالة في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّـهِۚ﴾:

الإضافة نسبة اسم إلى اسم آخر، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ نسبَ الإذن إلى اسم الله الأعظم، فتعرّف المضاف بالمُضاف إليه، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ عمومًا تعني مشيئته سبحانه؛ والمشيئة تقتضي القُدرة، والقُدرة تقتضي القيّوميّة، وهكذا تتواصل أسماء الله وصفاته جميعها لتضمن إظهار عظمة قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ في إقامة سلطانه وإظهار وبيان معجزاته وآياته، لتكون أدلّة على وحدانيّته سبحانه.

معنى (بإذن الله) تقتضي قدرة خارجة عن قدرات البشر

غرض القصر ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾:

عبّر بالقصر بطريق النّفي والاستثناء - وهو أقوى طرق القصر - للرّدّ على مُنكري اجتماع البشريّة مع الرّسالة، واصطفى أقوى الطّرق لكونها تأتي فيما يُنكره المخاطَب، فالغرض من التّعبير تمكين المعنى وتقويته، للتّأكيد على أنّه مع التّماثل في البشريّة ميّزتهم المنّة بهذه الخصوصيّة، فكما خصّهم الله بالرّسالة خصّهم بالحُجّة بإذنه.

لا حُجّة لأحدٍ من الرّسل المُكلّفين إلّا بإذن الله

معنى الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

بـيـان عـظـيـم التّوكّل على الله ﷻ

عُطف قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك تبيّينًا لمّا سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين؛ أنّه ليس ذلك إليهم، ولكنَّه بمشيئة الله، وليس الله بمُكرَه على إجابة مَن يتحدّاه[1]، فإنْ أيَّدَنا الله بالسّلطان فذلك حجّة على النّاس، وإلّا فإنّ الله قد مَنّ علينا بالإيمان، وفضّلنا على غير المؤمنين.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

الله وحده ناصر عباده المؤمنين على أعدائهم

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مُؤذِن بالحصر؛ وأنّهم لا يرجون نصرًا من غير الله تعالى فهو ناصر المؤمنين سبحانه، وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر الله. والجملة معطوفة بالواو عطفَ الإنشاء على الخبر[2].

نكتة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

لفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على الله

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أظهر البيان القرآنيّ لفظ الجلالة في موضع الإضمار؛ فلم يَقُل: (وعليه فليتوكل المؤمنون)، وفائدة ذلك الاهتمام ولفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على الله سبحانه، ولذلك فإنّ الرّسل هم أكثر النّاس وأصدقهم توكّلًا على الله تعالى؛ لأنّهم المَثَل الأعلى للنّاس في ذلك؛ وهذه واحدة من المِنَن الإلهية عليهم، فالتّوكّل على الله هو دأب المؤمنين، وهو السّبيل إلى فوزهم ونجاتهم.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

التّوكّل على الله مفتاح النّصر والتّمكين لعباده المؤمنين

والفاء في قوله ﷻ: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لجملة (لِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشّرط الّذي يدلّ عليه المقام. والتَّقدير: إنْ عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيّها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيّها المؤمنون؛ فليتوكل المؤمنون على الله،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

فإنّهم لن يضيرهم عدوّهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23][1].

معنى اللّام في: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

الأمر أفاد تثبيت النّفوس المؤمنة بمعية الله وعنايته

و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر. وقرأها الجُمهور ساكنةً، وقرأها الحسَن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها. وتسكينها طلب التّخفيف؛ ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين (لام كي) الّتي ألزمت الحركة إجماعًا[2]. فجاء الأمر بالتّوكّل على الله سبحانه؛ لأنّه لا ملجأ إليهم إلّا الله سبحانه والتّوكّل عليه، والتّعبير بالمضارع المُقترن الأمر لإفادة التّنفيذ العاجل وجعله حاضرًا، فاللّام جعلت للأمر سبيلًا وشبهُ الفعل المضارع بدلالته الحاليّة ماثل فيها أيضًا، وهذا فضل التّعبير بالمضارع المُقترن بلام الأمر على التّعبير بالأمر مباشرة، والمعنى: اجعلوا التّوكُّل حاضرًا.

الغرض من التّعبير بالجملة الإنشائيّة:

التّوكّل على الله استعدادًا للثّبات واليقين والمواجهة

الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاستئناف، لا للعطف كما زعم بعضهم، وفائدة الاستئناف هنا أنّ هذا المعنى جدير بالتأسيس؛ فهو معنى مستقلّ جارٍ في كل شئون الحياة، وهو هنا كأنّه جار مجرى المثل، لبيان أنّ حياة المؤمن على التّوكّل على الله تعالى.

معنى (ال) في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

التّوكّل على الله توفيقٌ ومِنّة منه

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيد (ال) التّعريف الاستغراقَ لكلّ مَن اتّصف بالإيمان؛ لأنّ غير المؤمنين لا يتوكّلون على الله، فهم غير مؤمنين بقدرته سبحانه، فخصّ جماعة المؤمنين بالتّوكّل عليه، وتلك مِنّةٌ عُظمى منه سبحانه أن وفّقهم إلى التّوكّل عليه، والاستعانة به سبحانه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

غرض تقديم ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

التّوكّل الحقّ ما كان على الله وحده دون غيره

قدّم البيان القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاختصاص، تأكيدًا على أنّ الجدير بوصف التّوكّل، هو مَن كان توكّله على الله وحده لا غيره، فهو الفرد الصّمد المقصود بقضاء الحوائج.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والسّلطان والبرهان:

السّلطان هو عظيم شأن الله وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين

السُّلطان قوّة اليد في القهر للجمهور الأعظم، وللجماعة اليسيرة أيضًا، يُقال: الخليفة سلطان الدُّنيا، يُقال لأمير البلد: سلطان البلد، ولا يُقال له: ملك البلد؛ لأنَّ المَلك هو من اتسعت مقدرته على ما ذكرنا، فالمُلك هو القدرة على أشياء كثيرة، وقيل: السُّلطان المانع المُسلّط على غيره من أنْ يتصرَّف عن مراده، ولهذا يُقال: ليس لك على فلانٍ سلطانٌ فتمنعه من كذا[1]. والسّلطان في سياق الآية بمعنى القادر على التّحكّم بنواميس الكون وسُننه. فيأتي بالآيات الّتي يطلبونها، أو يقترحونها. وهو عظيم شأن الله تعالى وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين، فعبّر بلفظ (سلطان) وأراد قدرته في تغيير نواميس الكون وإظهار الآيات، أمّا الآية فهي المعجزة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء: 59]. أمّا البرهان فلا يكون إلّا قولًا يشهد بصحّة الشّيء، والبرهان ما يقصد به قطع حُجّة الخصم، ومنه البُرهة؛ وهي القطعة من الدّلالة، ولا يُعرف صحة ذلك[2].

نكتة التّعبير في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّـهِ﴾:

القول (إن شاءَ الله) يكون لطلب إنجاز عمل بأنفسنا

استخدام كلمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70] تكون عندما نقوم بأنفسنا بعمل حاجةٍ ما، أو نتدخَّل بإنجازها بأنفسنا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 282.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.

لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 23 - 24]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: 70]، فقالوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70]؛ لأنّهم هم الفاعلون، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 99]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: 69]، وغيرها كثير في القرآن.

القول (بإذن الله) يكون لعملٍ بتدبير الله تعالى

أمّا كلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فتكون لعمل ليس لنا أيُّ تدخُّلٍ أو يَدٍ فيه؛ بل هو بتدبيرٍ خارجٍ عن إرادتنا كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 97]، فإنزال القرآن على رسول الله ﷺ ليس له دخلٌ أو يدٌ فيه؛ بل هو فعلٌ من أفعال الله، وكقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، فيظهر هنا انتصار القلّة على الكثرة بتدبير إلهيّ، وإلّا فالمنطق يقول: إنّهم يهزمون. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 102]، فالسّحر لا يضرّ النّاس إلّا بقضاء الله وإذنه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»